قراءة في مخطوط " هذه كيفية سيرة زواوة"

ملخص

يتلخص موضوع هذه الورقات البحثية حول العادات والتقاليد التي ميزت الحياة الاجتماعية داخل قبيلة زواوة إلى جانب مظاهر الالتزام بأحكام الشريعة والمنظومة القيمة التي تضبط إيقاعات المجتمع في إقليم البادية .

يضاف إليها التعريف مختلف النشاطات الاقتصادية التي يمارسها أفراد القبيلة و طبيعة العلاقة التي تربطها بقبائل الجوار الجغرافي و بخاصة منها أحياء العرب ..

د. مفتاح خلفات

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة المسيلة
الجزائر

مقدمة

لا جدال أن الباحث في العصور القوروسطية وبخاصة في الشق الاجتماعي _يصطدم _بحالة العوز - في المصادر التي تهتم بمثل هكذا مواضيع - وقل ما نعثر على ما يسعفنا في بسط أبحاثنا من كتب الاستوغرافيا التقليدية الأمر الذي يدفعنا إلى تجاوز هذا المعطل – بالحفر في مصادر بديلة منها على وجه الخصوص المخطوطات التي ما تزال- وستبقى بتقديري المعين الذي "لا ينضب" في كشف النقاب عن الكثير من الحقائق المغيبة من الدراسات التاريخية .

ومن منطلق هذه الأهمية، اخترت مخطوط " هذه كيفية سيرة زواوة " لما يقدمه من إضافة في الدراسات الاجتماعية لاسيما ما يتعلق بالتنظيم الداخلي للقبيلة وما يميزها من " أعراف وعادات وتقاليد". إلى جانب منظومة من القيم التي تضبط إيقاعات المجتمع القبلي في إقليم البادية .

Résumé

Cet article se propose d'étudier les coutumes, les traditions ,et les activités économiques de la tribu des Zwâwa, ainsi que la nature de leur relation avec les tribus voisines, et particulièrement les quartiers arabes.

تقديم المخطوط

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر 2014.

العنوان : هذه كيفية سيرة زواوة مرتبة في عشرة أبواب

- **المؤلف مجهول**
- **مسجل تحت رقم 1024 بخزانة المخطوطات مكتبة العامة الجزائر**

- تاريخ النسخ نهاية القرن 19 م مكتوب بخط مغربي واضح ، يقع في سبعة عشر ورقة على وجه واحد ورغم أن المؤلف أشار في مقدمة مخطوطه على أنه مرتب في عشرة أبواب، لكن لم يبقى منها إلا سبعة أبواب فقط ، نتيجة ما لحق به من إتلاف وضياع لبعض أوراقه و لبعض فقراته لاسيما الورقة 5 ،12،11،7،6.

الباب الأول : في الازدياد والتربية والطبيعة

يستشف مما ذكره المؤلف في مخطوطه، أن الأسر الزواوية كانت تبدي اهتماما كبيرا بالتربية والتنشئة الاجتماعية، ويتجلى ذلك منذ ولادة الصبي بلغ حد أن المرأة التي أذكرت يوضع لها سوارا يغطي ناصيتها [1] ، إلى جانب ذلك اعتادت كل أسرة من قبائل زواوة الاحتفال بالمولود الجديد، إذ يتوافد عليها الأهل والأقارب يحملون هداياهم " تسمى الخير" ، فمنهم من يأتي بالقمح أو السمن أو البيض وآخرون يقدمون النقود، بالمقابل يقيم والد الطفل " مأدبة عشاء" باللحم والسمن والعسل يدعونها - " الضيفة " - وهي نفس الوليمة التي يقدمها يوم ختانه[2]، إلا ان الملفت في هذه العادة الاحتفالية ما يترتب عنها من أعباء مادية يقدمها والد الطفل، إذ عليه أن يدفع بعض النقود لأمين الحي أو الدشرة[3]في أول يوم من شهر رمضان ، أي السنة الأولى لمولده أما إذا كانت بنتا فإن الأمر يتأجل إلى حين زواجها وينسحب هذا الأمر على كل أسر قبيلة زواوة (4)،وعندما يجمع لأمين الدشرة مالا كثيرا ،يسمى في عرفهم "نقود الفرح " يشتري بها ثورا يذبح يوم عيد الأضحى ويوزع على الأسر المعوزة [5]، وهذا ما يعكس لنا مظاهر التكافل والتضامن بين أفراد القبيلة .

الباب الثاني: في تزويجهم

أما فيما يتعلق بالخطبة والزواج فإن المؤلف ينقل لنا آداب الخطبة بكل تفاصيلها وما تتميز به من تقاليد و أعراف ، متجذرة في الوسط القبلي، يقول المؤلف إذا وقع اختيار الولد على واحدة من بنات الحي ، يتكفل والده بالاتصال بأحد أقارب أو أصحاب والد البنت ،فإن أبدى قبولا للطلبة يتقدم والده مع مجموعة من المشايخ، فيقيم والد البنت على شرفهم مأدبة عشاء ثم يتناقشون في مهر العروس فإن حدث وأختلف الطرفان ، يتدخل الحضور لتقريب وجهات النظر حتى يحصل الرضى بينهما ، إذ لا يحق لوالد البنت أن يرد وساطتهم ، لأن ذلك يجلب له عارا كبيرا على حد تعبيره[6] . ثم يعقد قران النكاح بالصيغة التالية " الحمد لله الذي أباح النكاح وحرم السفاح وخلق آدم من الماء فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا اللهم ألف بينهما .

كما ألفت بين آدم وحواء"، ثم يقولون لأب البنت أعطيت فيقول :" نعم "، والخاطب قبلت فيجيب بالقبول وتختم جلستهم بقراءة فاتحة الكتاب (7) .

ويستمر المؤلف في سرد الترتيبات التي تسبق العرس، قوله: بعد أن يتم الاتفاق ويحصل الرضى بين الطرفين، يقوم والد العريس بشراء ما يلزم من ملابس الكتان والحرير والحلي وأدوات الزينة مع القمح والسمن والعسل ونصف ثور من اللحم، ويحملها إلى أهل العروس هذا إلى جانب ما يقدمه العريس من هدايا لزوجته قبل الدخول بها (8) .

وبعد إتمام ترتيبات الزواج يأتي يوم –الزفاف- تخرج العروس من بيت أبيها، تصحبها النسوة بالزغاريد، ويمدنا صاحب" السيرة" بإشارات لطيفة حول بعض العادات والأعراف التي يمارسها سكان زواوة في أعراسهم منها أن يختار للعروس بيتا منفردا تحتجب فيه عن النسوة ولا تبقى معها إلا واحدة من أهلها، وإذا مضى ثلث الليل تصحبها الى غرفة زوجها حاملة معها كيسا من التمر والجوز والبيض المسلوق تقدمه كهدية له- يعطيها هو بدوره إلى أحد مرافقيه ليوزعها على أصحابه- .

ومن عاداتهم أيضا أن تقدم – العجوز- المصاحبة للعروسة إناء من الماء و تصب منه في كفيها، يشرب منها العريس ثم تعيد نفس العملية مع العروس، ولكن تقوم بإفراغه في الصحن وذلك لتكون كلمتها أدنى من كلمة الرجل، ثم يقوم العريس ويصلي ركعتين ويضع يده على ناصيتها ويدعو الله أن يبارك له فيها ويقوي رزقه مع رزقها ،وفي اليوم الموالي يحضر والداها بهدية من اللحم والبيض، فيقوم والد العريس بضيافتهما، إلى جانب ما يقدمه لهما من الطعام واللحم والعسل وبعد أسبوع من حفل الزفاف يعود إليها أهلها ويلبسونها حزاما من الحرير.

ويبارك لها الحضور من أهلها ومن أهل العريس بما يقدمونه من النقود كل حسب طاقته (9).

المرأة في إقليم البادية النموذج والاستثناء:

لعبت المرأة في بادية زواوة دورا كبيرا وإن اختلف نسبيا عن نظيراتها في المجتمعات الحضرية، فقد فرضت الظروف الاقتصادية وحاجة العائلة إلى " مصدر ثان" لتحقيق الاكتفاء الذاتي، - مساعدتها في الاقتصاد المنزلي - وذلك من خلال نشاطها في الميدان الزراعي طيلة مراحل الموسم الفلاحي، كجني الزيتون وجمع الحطب واستقاء الماء من العيون، هذا إلى جانب أشغالها في البيت من غزل **ونسج** وتربية للدواجن (10)، وبالتالي تقدم لنا المرأة من خلال هذه الأعباء أنموذجا للعطاء غير المحدود داخل البيت وخارجه .

لكن رغم ما تبذله هذه الأخيرة من جهود، إلا أنها لا تنال حقها من الميراث، ومرد ذلك حسب ما تفيد به بعض النصوص يعود إلى الوباء الذي أصاب المنطقة أوائل القرن 7هـ \ 13م وما حصده من أرواح لعدد كبير من السكان، الأمر الذي دفع بفئة من

العلماء بالتوصية على ضرورة أن يتولى العاصب إرث المخلف، ويلتزم القيام بحقوق النساء وحمايتهن والنفقة عليهن ولو لم يترك لهن شيئا بدعوى أن له الحق في التدخل لما عسى أن يصيبهن من العسرة (11) .

ومع أنه لا يمكننا تفنيد هذه الرواية أو إثباتها إلا أننا نستطيع القول ربما القصد من وراء ذلك الحفاظ على إرث العائلة خاصة إذا تعلق الأمر بالأراضي والعقارات، التي عادة ما تكون سببا في إثارة العداوة بين العائلات ،وهو ما نلمسه من خلال عدد النوازل التي ترد إلى الفقهاء في هذا الشأن(12) .

باب الطلاق:

أما فيما يتعلق بباب الطلاق الذي يعد من أبرز المشكلات الاجتماعية، التي كانت تؤثر في العلاقات الزوجية في منطقة زواوة - لما ينجر عنها من تشتت لأفراد الأسرة - فلم يبسط " المؤلف" في الموضوع كثيرا واكتفى بذكر أسبابه وما يترتب عن المرأة التي تهجر بيت الزوجية او المطلقة وما يلزمها من ضوابط ، ويترتب عنها من واجبات طيلة الفترة التي تقضيها في بيت والدها حسب ما تقتضيه الأعراف منها على وجه الخصوص، أن لا تخرج لاحتطاب الحطب- أو - استقاء الماء - ولا تحضر الولائم - ولا تخرج في كامل زينتها، ويستفاد مما ذكره المؤلف أنه كثيرا ما يتدخل المشايخ والأعيان والمرابطين لحل العديد من المشكلات والخلافات التي تفسد العلاقات الأسرية،وإذا ما طالت غيبة الزوجة عن بيتها يضطر بعلها إلى الزواج مرة أخرى وقد يردها على الضرة ويجمع بينهما في بيت واحد ، تأكلان في أنية واحدة ،وأما الرجل يكون مبيته في مسكن له خاص وكل ليلة تفرش له إحداهن فراشه وتبيت عنده. (13)

الباب الرابع: ترتيب الأحكام وكيفية أداء المغارم

يستفاد مما ورد في المخطوط أن القبيلة كوحدة سياسية مستقلة تستند إلى هيئات سياسية تنظيمية مقننة بأعراف وتقاليد مورثة، تقوم بوظائف متعددة غايتها خدمة المصلحة العامة وفق تراتبية اجتماعية، ويمكن أن نلخص الوظائف التي يقوم بها مجلس القبيلة فيما يلي :

أ) ضمان التوازن القبلي بين الأسر والعشائر المكونة للقبيلة والحيلولة دون قيام النزاعات فيما بينها، أو في حل بعض المشكلات في حالة وقوعها والحد من تطورها.

ب) تنشيط التعاون من أجل المصلحة المشتركة بين عائلات القبيلة الواحدة، خاصة إذا تعلق الأمر بشؤون كسب المعاش، حيث يحتد الصراع تحيد في الغالب مع المجال الجغرافي للتغلب على الصعوبات الطبيعية الدائمة والطارئة.

وتكتسي المشاريع المنجزة أو المزعم إنجازها طابعا جماعيا بين مكونات المجتمع تشكل فيه الجينولوجيا سندا ودعما لهذا المسار ، إذ لا مجال للطموح الفردي المنافي لمصلحة القبيلة.

جـ) اتخاذ المبادرات الكفيلة بالدفاع عن القبيلة ومقومات وجودها ضد أي تهديد خارجي، يستهدف مصالحها الحيوية سواء كان مصدر هذا التهديد من قبائل أخرى أو السلطة المركزية، إذ كانت لها توجهات تتعارض مع مصلحة القبيلة، أو تهديد نسيجها الاجتماعي ومن هذا المنظور فإنه يتوفر لكل قبيلة أو عرش أمين يعمل تحت وصاية أمين المدشر وأن لكل عائلة مقدما يسمى الضمان أو ناظر العائلة (14) ، لكن اللافت أن تعيين أمين الأمناء يكون كل سنة حيث يجتمع المشايخ وطلبة العلم والأعيان لانتخابه ، ويمكن أن نلخص شروط التعيين والمهام على النحو التالي:

أولا شروط التعيين

_ أن يكون فردا من القبيلة أو مقيما بها .

_ يحظى باحترام وقبول جميع أفرادها إلى جانب ما يتمتع به من الصفات الحميدة " صدق،أمانة ،رجاجة عقل،شجاعة و تدين ، ويسر الحال " ويختار له مساعدين من باقي الأعراش والعائلات ويؤدي القسم بأن يكون عادلا وأن لا يخفي الحقيقة و يصرح بقوله: " أعامل عدوي مثلما أعامل إبني ولن يجد المذنب أي معونة وتواطؤ مني " .

ثانيا مهامه :

- الحفاظ على أمن القبيلة ويرأس مجلسها

- تنفيذ القرارات و العقوبات من الأمثلة على ذلك في حالة التعدي على أملاك الغير أو أن يدخل أحدهم عين الماء الخاصة بالنساء....الخ .

- النظر في شكاوي والاحتجاجات التي يقدمها أفراد القبيلة (15).

- التحقيق في أعمال الجنايات والسرقة.

- الإشراف على الأملاك الجماعية.

- تسيير أراضي القبيلة والإشراف على عقود البيع والشراء والإيجار والعقارات من أراضي ومساكن وبناء الأحواض وإصلاح الطرقات.

- إعطاء الإشارة لعملية الحرث أو جني المحاصيل .

- التجهيز للحرب في حالة وقوع عدوان على القبيلة (16).

ثالثا مهام الطمان أو المساعد:

ينتخب من كل عائلة يساعد في تطبيق القرارات والتبليغ عن الاجتماعات والإعلان عنها في الأسواق الأسبوعية، تحصيل بعض الغرامات في حالات معينة كإفساد الماشية للحقول و المزارع ،إتلاف المحاصيل، الجرح والضرب بالعصا أو اليد أو الحجارة أما الشتم فتقدر الخطيئة على قدر الذنب المرتكب (17).

باب الشريعة:

أما في باب الشريعة فقد أفاض في – الإشادة - بالتزام مختلف الفروع القبلية لزواوة بأحكام الشريعة وحسبنا في ذلك ما ساقه من أمثلة للبرهنة على صدق تخريجه، منها قوله" إذا حدث نزاع بين رجلين وعرض أحدهما على الآخر ضرورة الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية يبدي تجاوبا دون أي اعتراض(18).

ويستشف من بعض الإشارات أن الرجل إذا أتقن حفظ مختصر خليل (ت767هـ 1369م) (19) صار من كبار العلماء والصلحاء (20)، ويحظى بكل مظاهر التوقير والتبجيل، صحيح أنهم أقل تحصيلا من الأطر التي استقرت بالحواضر إلا أن دورهم لا يقل قدرا عما يقوم به هؤلاء في مجالس الوعظ والتذكير، أو تصدرهم لمنابر الإمامة في المساجد (21) كما نابوا عن القضاة في الفصل بين المتخاصمين في الأسواق وتوثيق الروابط بين أفراد العشيرة الواحدة (22) .

القيم الاجتماعية

ويقصد بها منظومة القيم الخلقية والقواعد السلوكية، التي أطرت الحياة الاجتماعية في إقليم البادية، وارتبطت بمجموعة من الأعراف والتقاليد التي تجذرت داخل المجتمع، منها الكرم والشجاعة والإقدام والحياء والحشمة والتمسك بمظاهر الوحدة والتلاحم القبلي، ومن جملة القيم التي طبعت سلوك الأفراد ظاهرة الكرم حسب ما ذكر المؤلف (23).

إذ جرت العادة عندهم أن كل ما مر أحدهم ببستان جار له يقسم عليه هذا الأخير بدخوله وأن يجني كل ما يحتاجه من الثمار والمزروعات(24).

بالمثل ارتبطت بقبائلها عادة الثأر، التي كانت إحدى العوامل المثيرة للنزاعات والفتن القبلية وحسبنا في ذلك ما ذكره من أمثلة منها قوله " إذا حصل قتال بين عرشين لا يتصالحان حتى يتساوا في القتلى(25). فكان لزاما على كل عرش أو قبيلة إما أن تأخذ بثأر قتيلها أو تلجأ إلى المصالحة مع أهل القاتل الذي تلتزم عشيرته بدفع الفدية (26)، أما فيما يتعلق بمسائل العرض والشرف فلا مجال عندهم للمساواة غير القتل والانتقام على حد تعبيره (27).

واللافت من جملة الخصال التي أشادت بها المصادر، كما هو الحال بالنسبة لصاحب - المخطوط - وهذا عكس ما روجت له بعض المؤلفات التي حاول أصحابها الانتقاص من شأن البربر واتهامهم بقبول الذل والمهانة والعار في أهاليهم، لما كانوا يبذلونه من حفاوة في إكرام الضيف، وصلت حد أن يدفعوا له واحدا من الأسرة ليبيت معه ليلته و خاصة أفراد وادي الساحل لكن وإن سلمنا بحدوث مثل هذه الأفعال الشاذة لدى بعضهم إلا أنه لا يحب بأي حال إسقاط هذه الظاهرة على جميع القبائل البربرية عامة لما ساد قبائلها من قيم الحشمة والحياء والخوف من العار، وربما لأجل ذلك خصصوا بعض عيون الماء - للنساء فقط - دون الرجال كما هو الحال عند بني بترون وبني منقلات وبني بو يوسف ولهم أوقات معلومة حددت بين صلاة الظهر

والعصر لدى بعضهم وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (28)، و دون المضاعفة في عدد الأمثلة التي تزكي هذا الطرح يكفي أن نذكر بأن المرأة لا تسير في ركب الرجال إلا بولي وإن هي قصدت بيت أبيها غاضبة لا تخرج منه لقضاء حوائجها إلا حين يردها زوجها وإن طالت مدة إقامتها(29).

ورغم ما تميز به أهل البادية من حدة الطبع والخشونة في المعاملات، إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار قيم التسامح والطبية بين أفراد المجتمع القبلي إذ تكشف لنا النصوص التاريخية حجم الدور الذي كان يقوم به العلماء والمشايخ وأمناء الأعراش في مجالس الصلح بين المتخاصمين(30).

وربما هذا ما قصده إبن خلدون بقوله " أما أحياء البدو فينزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة. ونستنج من حصيلة المعطيات السابقة أن منظومة القيم التي سادت في بادية زواوة – حسب ما ورد في المخطوط – كان لها تأثير كبير في شبكة العلاقات الاجتماعية بما ترسخ من مبادئ أخلاقية وقواعد سلوكية في ذهنية الساكنة ساعدت إلى حد بعيد في تلاحم أعراشها وقبائلها.

الباب السادس: في الحراثة والغراسة والكسب والتجارة والصناعة

أ) الزراعة:

يستشف مما ذكره المؤلف أن سكان زواوة أبدو اهتماما كبيرا بزراعة الأرض رغم صعوبة المناخ والطبوغرافيا(31). إلا أن خصوبة التربة، وتوفر المياه من(أودية – ينابيع) وارتفاع كمية التساقط ساعد كثيرا على تطورها وتنوع محاصيلها منها الحبوب والبقول إلى جانب مختلف أنواع الأشجار المثمرة من تفاح ،إجاص، خوخ ، عنب(32) نضاف إلى ذلك ولعهم بغراسة أشجار التين والزيتون و الرمان.

ب) الصناعة الخشبية:

لا جدال أن غنى المنطقة بأنواع الأشجار الغابية مثل الدردار ،التين، السرو، العرعار، الصنوبر، البلوط والسنديان، الزان والطرفاء (33) ساعدت في ظهور العديد من الصناعات المحلية والتي تدخل في شتى أنواع الصناعات، فمن المنزلية الموائد والأبواب، القباقب والملاعق، الصحون والمهارس، ومن مراكب الصيد سفن وقوارب إلى جانب بعض الأسلحة الحربية والأقواس التي تصنع من شجر الزان خاصة (34).

ج) الصناعة النسيجية والجلدية:

يستفاد مما ذكره المؤلف أن الصناعة النسيجية كانت مزدهرة جدا وكان للمرأة دورا كبيرا في تطورها (35)، إذ تنسج أجود المنسوجات البربرية لتلبية متطلبات الأسرة من الملابس منها: البرنوس- الجلابة- الحايك- وسراويل الصوف وعباءة الكتان ومن الأفرشة المقاطف والزرابي(36). واللافت أن أهل البادية كانوا يصبغون البستهم بمختلف الألوان منها الأحمر، الأسود، الأخضر، الأصفر، الأرجواني- المركب من لونين الأخضر والأسود ومن مواد الصباغة النيلية (وهو صبغ نباتي يستعمل لكل انواع الزرقة) أما الصناعة الجلدية فيشيد بما حققه سكان زواوة من إكتفاء في هذه الصناعة لاسيما مع توفر المادة الأولية لامتلاكهم لثروة حيوانية كبيرة، فصنعوا من جلود الأبقار أنواعا من الأفرشة (37) إلى جانب سروج الخيل والأحذية والدفوف وقرب الماء.

التجارة والكسب :

لا جدال أن سعي سكان زواوة إلى تحقيق الاكتفاء وتأمين المعاش بامتهان غالبيتهم – للزراعة - مع ما كانوا عليه من بساطة العيش، – لم يسمح ببروز فئة عريضة من التجار. ربما لهذا الغرض اكتفى صاحب السيرة بإشارات توحي ولو نظريا على الأقل بأن عددا ممن استوطن البادية من التجار كان قليل جدا وأن بعضهم أختار الاستقرار في المدن، وخاصة منها بجاية على اعتبار – أنها شكلت قطبا اقتصاديا - لكثير من الأمصار- لذا لم يفصل كثير في هذا الباب- و اكتفى بذكر ما كان يحتاجه أهل البادية من بضائع يشترونها أو يقايضونها مع أحياء العرب المجاورة لهم، وخاصة منهم سكان البسائط (38). ومن هذا المنظور يذكر – المؤلف- أن تجار زواوة يشترون من العرب الأقمشة و التوابل وعادة ما يبادلونهم التين المجفف وزيت الزيتون والعسل مقابل القمح و الشعير(39).

قصارى القول أنه رغم الإشادة بالإمكانات الاقتصادية التي كانت تزخر بها منطقة زواوة على غرار ما كتبه كل من – اليعقوبي(ت 284هـ/897م) – ابن حوقل (ت 367هـ/977م): – ابن عبد ربه الحفيد (ت 6هـ/12م): –الادريسي (ت 560هـ/1166م):- حسن الوزان (ت 947هـ/1550م):– إلا أن صاحب المخطوط وإن - كنا نقدر له كل ما نقله إلينا من معلومات قيمة- إلا أنها تبقى في تقديري شذرات قليلة كنا نود أن يستفيض في الحديث عن إمكانات المنطقة و خاصة أننا نشكو حالة العوز للنصوص التي تكشف النقاب عن دراسة القبيلة من الداخل.

الكسوة والأكل :

كما سعت كل أسرة في توفير ما تحتاج إليه من القوت فإنها استطاعت تأمين كل ما يلزمها من لباس وأفرشة وأغطية على مدار فصول السنة – كما عبر ذلك المؤلف فمن كسوة الرجال والتي ينسج أغلبها في المنازل البرنوس والجلابة، وسروال الصوف(40) وقد وصفت ملابس سكان قبائل زواوة في تقارير كبار الرحالة الجغرافيين

بأنها خشنة وهذا ما يتلاءم والبيئة الجبلية والظروف المناخية الصعبة ، أما المرأة فقد تفننت في ارتداء أنواع الثياب من ملابس القطن والحرير وملاحق الكتان هذا إلى جانب الأساور المرصعة و الخلاخل المنقوشة (41) لكن الملاحظ أن الأمر لا ينسحب على كل الساكنة ذلك أن العديد من الأسر الغنية لم تكتف بما تنتجه وتنسجه من ملابس في البيوت بل تقتني ما تحتاجه من أسواق المدن المجاورة كبجاية، مرسى الدجاج (42) أما فيما يتعلق بالأطعمة فمن المؤسف حقا- أن كل ما كتبه تعرض لعملية إتلاف ومحو – لكل فقراته- لكن بإمكاننا تجاوز هذا المعطل بالعودة إلى كتب الرحالة والجغرافيين للوقوف على مصادر عيش أهل البادية و حسبنا في ذلك ما ذكره إبن حوقل وأن عبد ربه الحفيد صاحب الاستبصار وحسن الوزان إلى جانب ما ورد في المخطوط من إشارات يمكن أن تؤازرنا في بسط هذا الموضوع .

وقد لا نجافي الحقيقة إذا قلنا أنه ليس من السهل ضبط لائحة الأطعمة المشروبات، التي كان يتناولها سكان منطقة زواوة، لأن ذلك يتوقف على الحالة الاقتصادية للأسرة في محيط البادية، وإن لم تخرج في الغالب عن المنتوجات الزراعية والحيوانية التي تخلط بكيفيات متعددة وتحضر بأوجه مختلفة، فتنتج مأكولات متنوعة يصفها حسن الوزان بأنها أكثر تعقيدا، شكل فيها القمح والشعير والحنطة المواد الأساسية لدى سكان زواوة، ويحضر منها الكسكس بالسمن والعسل والبسيسة والعصيدة وشربة الفريك، إلى جانب أنواع اللحوم منها لحم البقر والماعز على الخصوص، لاسيما وأن سكانها كانوا يمتلكون قطعانا من الماشية، يضاف إلى ذلك أصناف من أطباق الأسماك خاصة وأن سواحل مدنها على غرار ساحل مدينة دلس وبني جناد، كانت تزخر بكميات كبيرة، إلى جانب ما كانوا يصطادونه من الطيور منها طائر السماني الذي ذكر بشأنه صاحب الاستبصار أنه موجود بكثرة في مدينة مرسى الدجاج.

أما عن أصناف الفواكه التي كانت تزين موائدهم نذكر منها التفاح والأجاص والخوخ والمشمش، وكان من عادة أهل زواوة أن يحفظوا ما يحتاجون إليه من مأكولات وثمار لسنة كاملة منها التين والعنب والجوز، ومن الأشربة نباتات طبية طبيعية كانت تزخر بها البيئة الجبلية، منها ما يصنع من قشور وعروق النافع، وقشور وعروق الكرفس، وعروق الهندبا، والنعناع، والحبق والقرنفل، وحبق الترنج، وغيرها من الأشربة، هذا إلى جانب ما كانت تحضره المرأة في بادية زواوة من أنواع الحلويات كالمسمن، والفطائر، لما توفر لها من مواد تساعد في تحضيرها منها البيض، اللوز، التين المجفف والعسل، والزيت والأدهان.

حصيلة وتقييم:

قصارى القول إن ما ذكرناه من خلال قراءتنا لمضمون المخطوط أن المؤلف نجح إلى حد بعيد في إعادة رسم المشهد التاريخي لقبيلة زواوة، فنقل إلينا و"بأمانة "جهود الأسرة في تربية الفرد والعناية بها إلى جانب مختلف العادات الاحتفالية، وتحدث بإسهاب عن دور -الأمين ومساعديه- في تنظيم شؤون القبيلة وعن الحضور القوي

للعلماء والأعيان في مجالس الصلح والتكافل الاجتماعي كما أشاد بالمنظومة القيمة المتجذرة في الوسط القبلي من خلال ما قدمه من قرائن واستحضره من شواهد تاريخية، التي ساعدت في تعزيز الروابط الأسرية على حد تعبيره وفي نفس السياق ذكر مختلف الطوائف المهنية ودور المرأة في المجتمع وعن الإمكانات الاقتصادية للقبيلة وأهم الصناعات وعن علاقاتها بالقبائل العربية وختم المؤلف مخطوطه بإبراز أنواع الألبسة ولائحة بمختلف الأطعمة .

وفي الأخير لا يفوتنا بأن ننوه بهذا المصدر، لما احتواه من مادة علمية يمكن أن نعول عليها في دراستنا الاجتماعية لمجتمع المغرب الأوسط عامة و قبيلة زواوة على وجه الخصوص.

الهوامش

1. مؤلف مجهول: كيفية سيرة قبائل زواوة رقم 1024 المكتبة الوطنية الحامة الجزائر الورقة 1 .

2. نفسه الورقة 2 .

3. عبد الكريم جودت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين د . م ص 320 - ويستفاد من إحدى النصوص التاريخية التي أوردها ابن عذارى في بيانه أن قبائل كتامة و التي إليها تنسب قبيلة زواوة كانت تخصص اليوم الثامن من وفاة الميت بإقامة وليمة كصدقة على روحه ويدعى إليها الأهل والأقارب ومجموعة من القراء مع أن الفقهاء اعتبروا ذلك بدعة لا أساس لها من الشرع البيان المغرب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تح ج س كولان وليفي بروفونسال دار الثقافة بيروت لبنان 1983 ج1 ص128 .الونشريسي ابو العباس احمد بن يحي – المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والمغرب ج1 أخرجه جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان 1981، ص 317.

4. مجهول سيرة زواوة ورقة 2 .

5. نفسه الورقة 1.

6. نفسه الورقة 2 : كمال السيد ابو مصطفى جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، 1996 . ص 13 يستشف من بعض النوازل والدراسات الاجتماعية أن القيمة المالية لمهر العروس تختلف حسب الوسط البيئي وموقع العائلات في الهرم الاجتماعي حول هذا الموضوع أنظر الونشريسي المصدر السابق ج3 ، ص ص 161- 249.

7. سيرة زواوة ورقة 2 وبالموازاة مع ذلك فان والد العريس إذا كان ذو مال وأراضي يقول للحاضرين " أشهدكم أني وهبت حسنات الموضع الفلاني ويسميه سواء كان من غرس العنب أو التين أو الزيتون إلى زوجة ولدي.

8. نفسه الورقة 2 تؤكد النوازل الفقهية أن بعض الآباء كانوا يهادون بناتهم ببعض الهدايا أنظر حول هذا الموضوع الونشريسي المصدر السابق ج 3 ص 246 .

9. نفسه الورقة 3 الونشريسي المصدر السابق الجزء 9 الصفحة 181 .182 .

10. نفسه الورقة 4 .

11. أبو يعلى الزواوي تاريخ زواوة: مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، 2005 ص129. يستفاد من نازلة أوردها الونشريسي في معياره أن عدم توريث المرأة لدى بعض القبائل يعود إلى القرن 5هـ وقد استنكر الفقهاء مثل هذه الأعراف التي تمنع فريضة من فرائض الله في الميراث ودعوا إلى إبطالها لعدم جوازها شرعا المعيار المعرب ج11 ، ص ص 293 – 294.

12. مؤلف مجهول نفسه الورقة 5 الونشيرسي المصدر السابق ج 3 ، ص 55 .

13. نفسه الورقة 4 .

14. مؤلف مجهول نفسه الورقة 6 الأمين بمثابة شيخ القبيلة ويدعى " امكسا " أو - افرونثا دارث- لدى بعض القبائل لكن ما يلاحظ انه يتوفر لدى كل قبيلة مجلسين الأول يسمى تاجماعت أوفلا اي العليا والثاني – باد – أي السفلى ويشمل العشيرة الواحدة حول هذا الموضوع أنظر: الحسين بن شيخ أث ملوية – القانون العرفي الأمازيغي الكتاب الأول في القانون الجزائي- هوما الجزائر دار هومة ص 66 جودت عبد الكريم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين د . م . ج، ص 320.

15. أن من واجبات أمين الأمناء الوقوف على الصلح والمهادنة بين الناس في الفتن والخصومات إذا عظم الأمر واشتد وعجز على إيجاد حل للمشكلة يعرضه على الناظر ويجعل لهم حدا معلوما من ستة إلى ثمانية أيام الورقة 7.

16. نفسه الورقة 6-7 .

17. سيرة زواوة ورقة 7 الملاحظ ان المرابيطين لا يلزمهم دفع الغرامات إلا الخيانة كالزنى.

18. نفسه ورقة 9 .

19. هو خليل بن إسحاق بن موسى المالكي الملقب بضياء الدين سمع من ابن عبد الهادي وقرأ على الرشيدي العربية والأصول وعلى الشيخ عبد الله المنوفي فقه المالكية شرح مختصر ابن الحاجب في ستة مجلدات انتقاه من شرح ابن عبد السلام وله مختصر في الفقه نسج فيه على منوال الهادي أنظر ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة مج 2 ط1 طبعه وصححه عبد الوارث محمد علي دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1997، ص 41 .

20. يستفاد من بعض الاشارات التاريخية التي أوردتها كتب الرحلة أن منطقة زواوة تحولت مع مطلع القرن 8 هـ / 14 م إلى بيئة عامرة بالصلحاء والزهاد والصوفية- فما من جبل ببادیتها إلا وقد احتوى ضريحا لأحد هؤلاء- لكن لا يجب الاعتقاد لان طوائف الصوفية كلها تصنف في خانة واحدة كما هو متعارف عليه عند عامة الناس ، بل إن الأمر يتطلب ضرورة

الفصل بين فئة الصوفية الحقيقيين وصلحاء القبائل ، لأنه لا يوجد اي تجانس بين الصنفين لان القراءة الدقيقة في الوظيفة ومجال النشاط الديني لكل فئة لا يسمح بان نجعلهما في مستوى واحد ،سواء من منطلق المدلول الاجتماعي او من زاوية الفينومينولوجيا الدنية حول هذا الموضوع انظر إلى الورثلاني نزهة الأنظار ص 34 وما بعدها ، ارنست غيلنر السلطة السياسة والوظيفة الدينية في البوادي المغربية منشور ضمن الانترو بولوجيا 2007 صفحة 44 .

21. يشير صاحب المخطوط أن الإمام الذي يصلي بالناس يتكفل أهل العرش بتوفير كل ما يحتاج إليه (التين، الزيتون، الزيت) من كل دار، كما تكلف بعض النساء وبخاصة الأرامل بجلب الماء وبعضهم والحطب انظر الورقة 10.

22. سيرة زواوة ورقة 10 .

23. أكد ابن خلدون في مقدمته على شيوع هذه الظاهرة في إقليم البادية ، وأن أهله أقرب إليه في الخير من الحضر الذين تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عنهم طرق الخير ومسالكه فكثرة ما يعانونه منه فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا المقدمة، ص 98.

24. سيرة زواوة ورقة 14 .

25. نفسه الورقة 6 صفحة 14 ، قيل في المغاربة أنهم إذا غضبوا يقتلوا أو يجرحوا وان الحدة عشرة أجزاء تسعة منها عند البرر وحدهم انظر عبد الكريم جودت، مرجع سابق، صفحة 308.

26. نفسه الورقة 08.

27. نفسه الورقة 04.

28. نفسه الورقة 04 البكري المعرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب مقتطف من كتاب المساليك والمماليك ذكر دوسلان باريس المصدر السابق، ص ص 65-64.

29. نفسه الورقة 05.

30. نفسه الورقة 5.4 وربما هذا ما قصده ابن خلدون بقوله " إما احياء البدو فينزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراءهم بما وقر في النفوس الكافة لهم من الوقالر و التجلة" المقدمة ، صفحة 102 .

31. نفسه الورقة 14 وحول اهتمام المغاربة بالأرض والاعتناء بها انظر الونشريسي المصدر السابق ج 8 صفحة 176 وما بعدها .

32. نفسه الورقة 14.

33. نفسه الورقة 14-15 .

34. يلخص ابن خلدون في مقدمته منافع الخشب في قوله " أول منافع الخشب أن يكون وقود لنيران في معاشهم وعصا لاتكاء والذود وغيرها من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذالك منافع لأخرى أهل البدو والحضر، فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد وأم الحضر فأسقف لبيوتهم والإغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم المقدمة، صفحة 322 .

35. تذكر المصادر أن الكثير من النساء يشترطن في عقد نكحهن يمتنعن من ممارسة حرفتهن المغيلي الدرر المكنونة في نوازل مازونة ج2 مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1331 جامعة الجزائر الجزء 1 الورقة 267.

36. نفسه الورقة 4-6-15-14.

37. نفسه الورقة 6-16 .

38. يبدو من خلال بعض الإشارات التاريخية أن قبائل زواوة لم تستطع الحفاظ على خصوصيتها البربرية أمام التغيرات الديموغرافية فقد آلت عملية الاختلاط والتزاوج بين العناصر العربية إلى تغير في النسيج الاجتماعي وهو ما آثار حفيظة مؤرخ المرحلة الاستعمارية الذين بالغو كثيرا في إظهار حالة الانقسام بين سكان المغرب الأوسط أي من العرب والبربر وبلغ بهم الأمر إلى حد تقسيم الفضاء الجغرافي عن النحو التالي جبل = بربر ، سهل=العرب لكن إن كنا نقر عمليا بهذا التقسيم فان المبالغة فهي إظهار هذه الثنائية بمظهر التعارض ، لان غايتها هو التعريق وإثارة النعرات القبلية أكثر مما يهدف إلى إظهار الحقيقة، لاسيما ان بعضهم انتهى به الأمر إلى وصف البربري بأنه إنسان بروتستانتي في عقلنياته وجديته في العمل وروح مبادرته بل اعتبر ذا نزعت ديموقراطية وقد أكد جان فافري التقليدية والتحديث المعاق مقال منشور ضمن كتاب الانتربولوجيا و التاريخ ص17محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي – مركز الدراسات الوحدة العربية ص 9.

39. نفسه ورقة 15 حول عملية المقايضة أو المعاوضة، انظر الونشريسي ج5 ص 57 ص:238 ، ج6 ، ص 404.

40. نفسه الورقة 15-16 .

41. نفسه الورقة 14-15 .

42. حول هذا الموضوع راجع مارمول كربخال: إفريقيا : تر محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع الرباط المملكة المغربية 1988 الجزء 2 الصفحة 374 ، الإدريسي: ابو عبد الله محمد الشريف المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق حققه ونقله محمد حاج صادق د.م.ج الجزائر 1983. نزهة المشتاق ص ص 115 - 116.

قائمة المصادر

1/ الادريسي: أبو عبد الله محمد الشريف المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق حققه ونقله محمد حاج صادق د.م.ج الجزائر 1983.

2/ البكري : المعرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب مقتطف من كتاب المسالك و الممالك ذكر دوسلان باريس.

3/ ابن حجر العسقلاني: في الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة مج ط1 طبعه وصححه عبد الوارث محمد علي دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1997

4/ ابن حوقل : منشورات مكتبة الحياة بيروت لبنان بدون تاريخ .

5/ ابن خلدون المقدمة دار الكتب العلمية بيروت لبنان 2002 .

6/ ابن عذارى: (ابو العباس احمد بن محمد المراكشي) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تح ج س كولان و ليفي بروفونسال دار الثقافة بيروت لبنان 1983
7/ مؤلف مجهول هذه كيفية سيرة زواوة المكتبة الوطنية الحامة الجزائر رقم 1024 .
8/مارمول كربخال: افريقيا : تر محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع الرباط المملكة المغربية 1988.
9/ المغيلي : الدرر المكنونة في نوازل مازونة ج2 مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1331 جامعة الجزائر.
10/ الونشريسي ابو العباس احمد بن يحي – المعيار المعرب والجامع المغرب ج1 أخرجه جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان 1981 ص 317 البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج1 تح: ج س كولان و ليفي بروفنسال دار الثقافة بيروت لبنان 1983 .
11/ ابو يعلى الزواوي تاريخ زواوة: مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، 2005 ص129.
12/ ابن عذارى: (ابو العباس احمد بن محمد المراكشي) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تح ج س كولان و ليفي بروفونسال دار الثقافة بيروت لبنان 1983 .

قائمة المراجع

1/ ارنست غيلنر: السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية منشور ضمن الانتربولوجيا والتاريخ 2007.
2/ جان فافري: التقليدية والتحديث المعاق مقال منشور ضمن كتاب الانتربولوجيا والتاريخ.
3/ جودت عبد كريم: الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع هجريين م و م ج .
4/ كمال السيد ابو مصطفى جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، جمهورية مصر العربية، 1996 .
5/ لحسن آث ملويا: لحسن بن الشيخ آث ملويا القانون العرفي الأمازيغي الكتاب الأول في القانون الجزائي دار هوما الجزائر.
6/ محمد ناصح: جوانب من الحياة الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب في العصر الوسيط القرن6هـ /12م أنموذجا أطروحة جامعية كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط السنة الجامعية 1987 / 1988.
7/ محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي – مركز الدراسات الوحدة العربية.

8/ الورتلاني : نزهة الأنصار في فضل علم التاريخ والأخبار تصحيح محمد بن أبي شنب مطبعة بيار فونتان الشرقية الجزائر 1968 طبعة دار الكتاب العربي بيروت لبنان 1974.